

السؤال

على حد علمي فقد ذكر الإسلام أن آدم وحواء كانوا أول البشر والأنبياء على وجه الأرض ، وأن الناس جميعاً من ذريتهما، فإن كان هذا هو الحال، فسيتعين عليهم التزاوج من أجل إنجاب الذرية ، ثم سيتعين على ذريتهم التزاوج مع بعضهم أو مع آبائهم ؛ نكاح المحارم ، زواج الأقارب ؛ لإنجاب ذريةً أخرى ، وهكذا ، فكيف يمكن ذلك؟ وكيف يوضح الإسلام ذلك؟ فنكاح المحارم محرّم في الإسلام على حد علمي ، وحتى إن لم يكن كذلك ، فوفقاً لعلم الوراثة فلن تكون هناك أجيال جديدة بعد خمسة أو ستة أجيال ناتجة من نكاح المحارم ، وإنما سيؤدي ذلك إلى ولادة أجنة ميتة ، أو أطفال مشوهة مع مشكلات وراثية كثيرة. فكيف يمكن لشخصين فقط إنجاب هذا الكم الهائل من البشر في هذا الكوكب ، إلى أن وصل إلى التنوع الوراثي الذي نراه اليوم ؟ أو بالأحرى كيف يمكن لشخصين فعل ذلك على الإطلاق؟ وكيف يوضح الإسلام ذلك ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولاً :

الذي نص عليه القرآن الكريم من قصة بداية خلق البشر :

1- أن الله تعالى بدأ خلق الإنسان من طين ، وهو آدم أبو البشر عليه السلام .

قال الله تعالى : (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ) السجدة /7 .

2- وأن الله سبحانه وتعالى بعد أن خلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام ، خلق منه زوجته ، ثم خلق منهما جميع البشر .

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا

اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) النساء /1 .

وقال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ خَبِيرٌ) الحجرات /13 .

3- وبين القرآن الكريم أن خلق آدم عليه السلام كان من طين ، لكن نسله حصل بالتناسل من الماء (المني) .

قال الله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) المؤمنون /12 - 14 .

وقال الله تعالى : (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ

وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (السجدة /7 - 9) .

أما كيف حصل تزواج أولاد آدم عليه السلام ، وكيف حصل نسلهم ؟

فلم يثبت في القرآن الكريم أو السنة النبوية الصحيحة بيان ذلك ، وإنما نسب إلى بعض الصحابة - ويحتمل أنه مأخوذ من كتب أهل الكتاب - أن آدم عليه السلام كان يولد لزوجته في كل حمل ذكر وأنثى ، فيزوج ذكر حمل بأنثى حمل آخر ، وهكذا تكاثر أولاده .

روى ابن جرير الطبري بإسناده عن السدي :

" عن السُّدِّيِّ ، فيما ذكر عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : (وكان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية ، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ، ويزوج جارية هذا البطن غلام البطن الآخر ...) " انتهى من " تفسير الطبري " (8 / 322) .

وهذا القول هو المشهور بين علماء الإسلام ؛ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى :

" وذكر السُّدِّيُّ في تفسيره عن مشايخه بأسانيده : أن سبب قتل قابيل لأخيه هابيل أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن من ولده ، بأنثى الآخر ، وأن أخت قابيل كانت أحسن من أخت هابيل ، فأراد قابيل أن يستأثر بأخته ، فمنعه آدم ، فلما ألح عليه ، أمرهما أن يقربا قربانا ، فقرب قابيل حزمة من زرع ، وكان صاحب زرع ، وقرب هابيل جذعة سمينة ، وكان صاحب مواش ، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل ، دون قابيل [أي : تُقبل قربان هابيل دون قابيل] ، وكان ذلك سبب الشر بينهما . وهذا هو المشهور " انتهى من " فتح الباري " (6 / 369) .

وهذا القول ، وإن افترضنا أن مصدره فقط كتب أهل الكتاب ، فإنه لا يرفضه العقل السليم ، ولا يوجد نص في ديننا يكذبه ؛ فليس هناك سبب وجيه يدعوننا إلى تكذيبه أو يمتنعنا من روايته .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) البخاري (3461) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى :

" وقال الشافعي من المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز التحدث بالكذب ، فالمعنى حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم " انتهى من " فتح الباري " (6 / 499) .

ثانيا :

من المعلوم من دين الإسلام أن الزواج بالأخت حرام بنص القرآن .

قال الله تعالى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ...) النساء /23 .

فهل هذه الآية تناقض ما روي من طريقة تزويج آدم لأولاده ؟

الجواب : لا يوجد أي تناقض ؛ وبيان ذلك من وجهين :

الوجه الأول :

نحن نوقن بأن الإسلام هو دين الله الوحيد وهو دين جميع الأنبياء .

قال الله تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) آل عمران / 19 .

ورغم أن الدين ، في أصله ، واحد ، إلا أن هذا لا يمنع من وجود اختلاف بين شرائع الأنبياء في بعض الأحكام الفقهية العملية لحكمة يعلمها الله تعالى .

قال الله تعالى : (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا) المائدة / 48 .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

" والذي أنزله الله هو دين واحد ، اتفقت عليه الكتب والرسل ، وهم متفقون في أصول الدين ، وقواعد الشريعة ، وإن تنوعوا في الشريعة والمنهاج ، بين ناسخ ومنسوخ ، فهو شبيهه بتنوع حال الكتاب الواحد ، فإن المسلمين كانوا أولاً مأمورين بالصلاة لبيت المقدس ، ثم أمروا أن يصلوا إلى المسجد الحرام ، وفي كلا الأمرين : إنما اتبعوا ما أنزل الله عز وجل " . انتهى من " الجواب الصحيح " (2 / 438) .

فإذن لا مانع أن يكون من شرع آدم عليه السلام : جواز زواج الأخت من أخيها الذي ليس توأماً لها ، لحكمة ومصلحة راجحة ، وحرمة ذلك في ديننا لعدم وجود تلك الحكمة .

قال العيني رحمه الله تعالى :

" والأحكام شرعت لمصالح العباد ، وتتبدل باختلاف الزمان ...

فلا شك أن نكاح الأخوات كان مشروعاً في شريعة آدم عليه السلام ، وبه حصل التناسل ، وهذا لا ينكره أحد ، ثم نسخ ذلك في شريعة غيره ... " .

انتهى من " شرح سنن أبي داود " (4 / 356) .

الوجه الثاني :

أن أهل العلم قد تتبعوا نصوص الشرع وأحكامه ، فتحصل من هذا الاستقراء ؛ أن الأحكام الشرعية إنما شرعت لتحقيق مصالح العباد ، ودفع الفساد عنهم ؛ فالله تعالى لا يحرم شيئاً إلا لاحتوائه على مفسدة راجحة ، ولا يحل شيئاً إلا لخلوه من تلك المفسدة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

" فإن الله بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فكل ما أمر الله به ورسوله : فمصالحته راجحة على مفسدته ، ومنفعته راجحة على المضرة ، وإن كرهته النفوس " انتهى من " مجموع الفتاوى " (24 / 278) . وقال ابن القيم رحمه الله تعالى :

" الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ؛ فليست من الشريعة ، وإن أدخلت فيها بالتأويل " انتهى من " إعلام الموقعين " (4 / 337) .

وفي شرع آدم عليه السلام زواج الأخت بأخيها الذي ليس بتوأم لها ، تحقيق مصلحة هامة وضرورية ، وهي حفظ النسل من الانقطاع والاندثار ؛ لأنه إذا لم يحصل تزواج بينهم فلن يكون هناك استمرار للجنس البشري ، أما المفاصد فهي منعدمة أو لا تكاد تذكر أمام هذه المصلحة العظيمة .

قال ابن علان رحمه الله تعالى:

" وكان شريعة آدم عليه السلام ؛ أن بطون حواء كانت بمنزلة الأقارب الأبعد ، وحكمته تعذر التزوج ، فاقتضت مصلحة بقاء النسل تجويز ذلك " انتهى من " دليل الفالحين " (2 / 448) .

بل لو قدر أنه لم تصح هذه الروايات ، وكان الواحد يتزوج من أخته التوأم : فلا مانع من أن يكون ذلك مباحا لهم ، قد أذن الله لهم فيه على لسان نبيه آدم عليه السلام ؛ بل مثل هذا التزواج ، سواء من الأخت التوأم ، أو غيرها : هو من ضرورات الحياة التي أرادها الله لعباده ، ولا يتصور توالد البشر ، على سنة الله التي أرادها لهم ، بغير ذلك ؛ ومثل هذا لا يمنع منه شرع ، ولا عقل !!

وهذا بخلاف الزواج من الأخت في شرعنا فقد حرم ؛ لأنه لا يحقق أي مصلحة ، ولا ضرورة ولا حاجة إليه أصلا ، وفي نفس الوقت لا يخلو من مفاصد خطيرة أهونها ما أشرت إليه في سؤالك من الأمراض والعلل .

ثالثا :

ما ذكرته عن الأمراض الوراثية عند حصول التناكح بين الأقارب من الدرجة الأولى .

نعم ؛ يقرر الأطباء والباحثون هذه المضار ؛ ومن خلال بحوث علم الوراثة توصل الباحثون إلى أن الكثير من الأمراض والتغيرات التي يتعرض لها الآباء ، بسبب الطفرات الجينية أو العوامل البيئية وغيرها ، ستورث من قبل نسلهم . وتوصلوا أيضا إلى أن اشتراك الزوجين في النسب القريب سيؤدي إلى أن أولادهم كما سيكونون معرضين للأمراض الجينية السائدة التي تلحق غيرهم من الأطفال ، سيكونون في الوقت نفسه معرضين بنسبة أكبر من غيرهم للأمراض " الجينية المتنحية " ، وهي التي من شروط ظهورها أن يكون كل واحد من الوالدين حاملا للجين المرضي ، وهذا إنما يكون محتملا بدرجة كبيرة إذا كان الوالدان بينهما نسب قريب جدا ؛ وبهذا فالزواج من الأقارب من الدرجة الأولى يعرض إلى الإصابة بالأمراض التي تنتقل بالوراثة بنسبة احتمال أكبر .

لكن هذه النتائج لا تبطل ما روي من طريقة تناسل أبناء آدم عليه السلام للآتي :

1- هذه البحوث تقرر بجلاء أن البحوث تتحدث عن نسبة احتمال حصول هذه الأمراض والعلل ، ولا تقطع وتجزم بحدوثها ، فإن رواية تزواج أبناء آدم عليه السلام ، لا يوجد فيها أي مناقضة للحقائق أو النظريات العلمية ؛ لأن من طبع الاحتمال أن يتخلف أحيانا ، وإن كانت نسبة وقوعه كبيرة .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله ، في تقريره لمسألة إباحة صيد الكلاب : " ومقتضى ذلك : أنه معفو عنه ، فالله سبحانه هو القادر ، وهو الخالق وهو المشرع ، وإذا كان معفوًا عنه شرعاً ، زال ضرره قدرًا . فمثلاً الميتة نجسة ، ومحرمّة ، وإذا اضطرَّ الإنسان إلى أكلها صارت حلالاً لا ضرر فيها على المضطرِّ " انتهى من " الشرح الممتع " (1/420) وهذا واضح في مسألتنا .

2- غالب الظن أن المعلومة التي أشرت إليها تتحدث عن حصول التزاوج بين المحارم في كل جيل من الأجيال ، أما في قصة أولاد آدم فالرواية تتحدث عن التزاوج بين أفراد الجيل الأول ، فقط ولم تنص على استمرار طريقة التزاوج هذه في الأجيال التالية .

3- هذا الذي يقرره علم الوراثة إنما يصدق على البشرية الآن ، لأنه لا يكاد يخلو إنسان من تعرض بعض آباءه أو أجداده لبعض العلل والاختلال .

أما آدم عليه السلام فلا يصدق عليه هذا القول ، لأنه هو المخلوق الأول ، وقد خلق في أحسن تقويم .

قال الله تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) التين /4 .

ثم أسكن هو وزوجه الجنة وهي مكان للنعيم التام الذي لا شقاء ولا علل فيه .

قال الله تعالى : (وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ، فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ، إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى) طه /115 - .

فإذن لا يتصور أنه كان عنده شيء من الأمراض أو الطفرات الجينية التي سيورثها لأولاده ، بل الأمر المتصور والمعقول أن هذه العلل كلها حادثة بعده بمرور الزمن وتعاقب الأجيال .

رابعاً :

استشكالك أن يكون آدم وزوجه هما فقط مصدر هذا الكم الهائل من البشر ، إنما يكون وجيها لو كنت تعلم على وجه اليقين عمر البشرية على هذه الأرض ، ونسبة التوالد في كل عصر ، أما مادام ذلك كله مجهولاً ، فلا يصح عقلاً طرح مثل هذا الاستشكال ؛ كما أن الحساب لا يترك مجالاً لهذا الاستغراب إذا افترضنا لعمر البشرية فترة زمنية ليست بالقصيرة ، ونسبة توالد معقولة.

ونسأل الله تعالى أن يبصرك بالحق ويوفقك إليه .

والله أعلم .